بعد ٤٦ عاماً على قيامها.. وعامين على الاحتفاء بها بلا تزييف

ذكريات.. وآراء تتفق على أهمية الثورة وتختلف في النظر اليها

قسم التحقيقات

قد تختلف الآراء في تقييم ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ أو في التسمية المناسبة التي يمكن أن تطلق عليها. ولكن يبدو أن ثمة نوعاً من الاجماع على أن هذه الثورة - التي نستذكر اليوم ذكراها السادسة والأربعين - غيرت مجرى التاريخ العراقي الحديث على نحو لم يخطر - ربما - على بال قادتها الكبار، ومنهم الزعيم عبد الكريم قاسم الذي كان الأكثر حيازة على حب الناس - ولاسيما الفقراء الذين حاول إنصافهم وتصحيح أوضاعهم - من بين جميع (الضباط الاحرار)، برغم أن ألد اعدائه منهم استطاعوا ازاحته من المشهد السياسي بعد اغتياله وتسلم مقاليد السلطة منذ يوم ٨ شباط الأسود ١٩٦٣ وحتى انهيار الحكم البعثي في ٩ نيسان الذي أغرق البلاد في أنهار دماء لما يتوقف تدفقها بعد. إذن اليوم هو الذكرى الثانية لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي يحتفي بها من - يحتفي من ابناء الشعب العراقي اثر ذلك التغير الدراماتيكي الذي حدث قبل اربعة عشر شهراً، وبعد أن ظلت هذه الذكرى طوال أكثر من أربعين عاماً مجالاً لتزييف الوقائع والاحداث وتغييب الحقائق. المدى استطلعت آراء مجموعة من الباحثين والمثقفين العراقيين وآراء شرائح مختلفة من المجتمع بشأن هذه المناسبة وتوجهت إليهم بهذا السؤال:

ما تقييمك لدور ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في مجرى التاريخ العراقي الحديث؟ وما الأثر الذي تركه أبرز قادتها (عبد الكريم قاسم) على الصعيد الاجتماعي وفي وجدان الناس؟

فكانت هذه الحصيلة الثرية بآراء ومواقف وتحليلات وأحداث وشهادات شتى، يشكل بعضها ما يمكن أن يطلق عليه تاريخ ما أهمله التاريخ.

(الثورة.. المفاجئة)

يرى السيد جعفر كريم (موظف متقاعد): بانها ثورة حقيقية لم تأت تلبية لمطلب خارجي، في ترجيح أحد الاقطاب المتصارعة آنذاك (امريكا والاتحاد السوفيتي لهذا كانت خارج التوقع - مفاجئة - وفي حينها حاول الامريكان احتواءها، والعمل على الاجهاز عليها.. واخذ التدابير اللازمة لعدم تكرارها في المنطقة، وفي حينها حركت الاسطول السادس باتجاه خليج العقبة.. فضلاً عن التحرك المخابراتي لشراء القوى السياسية العراقية والتنسيق معها للتخلص من الثورة، ولكنهم فشلوا في هذا التحرك مع الحزب الشيوعي العراقي.. وهذا الامر وثقه (هيكل) في كتابه عن حرب الخليج).

لهذا نستطيع أن نسميها ثورة الضرورة الداخلية. فهي، برغم، عمرها القصير استطاعت أن تنجز اكثر مما تعلن وتفعل اكثر مما تقول، من اجلاء القواعد البريطانية وحتى قانون (٨٠) الذي حدد تحرك شركات النفط، ومنح الاكتشافات النفطية العراقية للمؤسسات العراقية حصراً (شركة نفط العراق)، وتحرير الدينار العراقي من تبعيته للجنيه الاسترليني.. هذا فضلاً عن نزاهة الرجل نفسه (عبد الكريم قاسم) التي لا يختلف اثنان فيها.

أما السيد مازن لطيف (بكالوريوس علم نفس)، فبدأ حديثه بمقولة (الشهيد) سلام عادل (إن انقلاب ١٩٦٣ لم يحدث الآن، بل حدث عام ١٩٥٩) ورأى أن ثورة ١٤ تموز نقلة نوعية بالنسبة للمجتمع العراقي - وهي الثورة الوحيدة الحقيقية، وقد سلك زعيمها الطريق الصحيح في البدء لكنه سرعان ما تحول إلى دكتاتور، ارتكب اخطاء جسيمة، ادت إلى أن يتسلم البعثيون السلطة.. واعتقد أن مقولة (عفا الله عما سلف) بعاطفيتها لا تصلح لرئيس جمهورية فالقانون لا يعرف العفو عن المجرم.. ويكفي أن من عفا عنهم، هم الذين قاموا بقتله.

لقد كان قائداً عسكرياً، وليس رئيس دولة.

في حين ذهب السيد (علي خنجر جبر). - طالب قانون - إلى القول: مثلت ثورة ١٤ تموز انعطافة مهمة في حياة العراق السياسية، وقد استطاعت تفجير طاقات ابناء هذا البلد التي اخمدتها سياسات نوري السعيد وعبد الاله. وهي لم تكن إلا نتيجة طبيعية لسلسلة من الثورات والانتفاضات التي قادتها قوى شعبنا الوطنية وفي مقدمتها الحزب الشيوعي العراقي.

إن ١٤ تموز لم تكن انقلاباً كما يحلو للبعض أن يسميه، لأنها استقطبت كل شرائح الشعب وتكفي مظاهرات التأييد العفوية التي طافت ارجاء العراق، لقد كانت ردة فعل طبيعية لشعب لا يرتضي الهوان، على قسوة واستبداد نوري السعيد والوصي (عبد الاله).

ثورة ارتبطت بالحرية

الحاج ابو حسن (علي عباس الكعبي) قال: كنت في اثناء حدوث الثورة، في الكحلاء - العمارة - وكنا اصحاب مواش ورعي، لم نكن نملك راديو حينذاك، ولكننا شعرنا بحدوث أمر خطير نتيجة التحرك غير الطبيعي للشيوخ والاقطاعيين، إذ انهم سرعان ما تركوا كل شيء وهربوا خوفاً مما قد يحصل لهم من الفلاحين. وقد حدثت ردة فعل كبيرة، حين عرفوا بالثورة، حتى استولوا على املاكهم بما فيها بيوتهم نفسها. لهذا بقيت الثورة عندنا ترتبط بالحرية والتحرر من ظلم وقسوة الاقطاعيين وبشيوخ هذا الظلم، لم تعرفه الاجيال الحالية من الشباب، لهذا لا نجدهم يفهمون هذه الثورة ولو أننا شبهنا ظلمهم بظلم صدام واعوانه لما أخطأنا. القتل نفسه والتشريد ايضاً والاستيلاء على الاموال وانتهاك الاعراض، نعم كان هذا سلوك الشيوخ السابقين، فقد كان الفلاح وعائلته ملكاً للاقطاعي، يفعل بهم ما يشاء. لهذا نرى أن الخلاص من صدام الوجه الثاني للخلاص من سلطة الاقطاعيين والشيوخ. وهذا الامر حدث بنخوة عراقية، وليس بجيوش اجنبية. لهذا سيبقى عبد الكريم قاسم رمزاً للشرف العراقي الوطني. معه عرفنا ماذا تعني المساواة، وكنا نسمع أن هناك اماماً عادلاً وخليفة نزيهاً، لكننا لم نصادف هذا الامر في السنوات التي عشناها إلا مع عبد الكريم قاسم.

أما السيد (ابو صلاح - مقاول) فذهب إلى القول: لقد عشنا الثورة ونحن شباب ورأينا عبد الكريم قاسم وسمعناه، فوجدنا إنه جمع الشجاعة والنزاهة والبساطة، وشخص كهذا نادر في التاريخ. يكفيه ما قدمه لآلاف العوائل المشردة، وزع بينهم أراضي الشعلة والثورة وأسكنهم ورعاهم. مات على سرير عسكري ولا يملك من اموال العراق سوى دراهم معدودات، وقضى عمره يدعو لبناء العراق.. الظلم الكبير الذي عشناه في مدة حكم العائلة المالكة.. والظلم الاكبر الذي عشناه بعد الانقلاب على عبد الكريم قاسم يعطينا صورة دقيقة عن كونه الزعيم الوطني الاوحد في هذا البلد.

ويكفي ما حصل في لحظاته الاخيرة حين رفض اشراك الشعب في الدفاع عنه خوفاً على جموع الناس من نيران دبابات القوميين، وواجه مصيره برجولة وبسالة رافضاً أن يضع خرقة على عينيه وهو يواجه طلقات الغدر، ولم يسحب من حفرة برغم أن صدور العراقيين لو طلب في حينها لكانت مأوى له. يكفي هذا للتدليل على أنه زعيماً حقيقياً.

في حين قال المواطن (عبد الكريم ياس - بائع كتب): إن عبد الكريم قاسم زعيم حقيقي مثلما كانت ثورة ١٤ تموز ثورة حقيقية، خلصت البلد من ظلم العهد، الملكي وقساوة الاقطاعيين والمتنفعين. والكل يعرف أن السفارة الروسية اتصلت بعد الكريم قاسم طالبة منه الأذن بالتدخل لانهاء التمرد، فأجابهم: (لا أبدل الاستعمار البريطاني باستعمار روسي، هكذا نرى أنه في لحظاته الاخيرة، وهو يعلم أن الدبابات سوف تحسم المعركة لصالح المتمردين لم يفكر إلا بمصلحة البلد.. لقد خلص البلد من الاستعمار.. ولكنه كان يعتقد أن البلد سوف يبقى بعيداً عنهم، ولم يدر بخلده، إن الدبابات التي حاصرته كانت بتوجه ومباركة أمريكية.

العراق فوق الجميع

ذهب السيد (سلمان عبد الواحد كيوش - طالب دكتوراه علم النفس) إلى القول: اكاد لا اميز بين ثورة ١٤ تموز وبين عبد الكريم قاسم، ربما بسبب ما اشبعت به من حكايات من والدي واقربائي من كبار السن.. كانوا يبالغون في تنقيته، والسبب معروف، فقد جاء ليعطيهم أجمل ما يعطي (الحرية)، أن تاريخ العراق المعاصر يبدأ ببداية تسلم هذا الرجل لمقاليد السلطة في العراق، برغم كل محاولات النيل منه، من محو لانجازاته العملاقة إلى تشويه لصورته.. لقد كان وطنياً بحق. قدم العراق الموحد فوق أي تفصيل آخر حتى أنه رحل والكثير يجهل إن كان سنياً أم شيعياً برغم حرصهم على معرفة هذه المعلومة. لو قدر لهذا الرجل العظيم أن يستمر في حكم العراق لكان حالنا الآن غير ما هو عليه، لأنه ببساطة أحب العراق واحب شعب العراق، ولم يبدر منه ما يقاطع هذه الحقيقة. أما فيما يخص الاخطاء التي سجلت عليه، فهي، بتقديري نتاج عرضي لرأيه ونشاطه الحميم في خدمة العراق.

أما محمد مخلف الصالح (طالب ماجستير - انكليزي -) فرأى أن عبد الكريم قاسم من الشخصيات العراقية الفذة، لعب دوراً مهماً في اسقاط الحكم الملكي. ويمتلك شعبية واسعة بين الناس وله جماهيره العريضة، وهو الذي دعا لوضع الجيش فوق الميول والاتجاهات، وهذا يؤكد اخلاصه في خدمة العراق وتأكيده على استقلاله. ولم يكن يؤمن بالطائفية، ولكن تقريبه للقوميين ثم ضربهم وتقريبه للشيوعيين ثم ضربهم أدى إلى عزلته وانحسار نهجه الشعبي، ومن ثم اسقاط نظامه. لم تكن لديه خطة واضحة ومنهجاً معروفاً، ولكنه شخصية نظيفة خدمت العراق واخلصت له.

في حين رأى السيد عبد شندي مريوش (بائع كتب) أن عبد الكريم قاسم هو فعلاً (ابن العراق البار) لقد خلص الشعب من استبداد العهد الملكي وطغيانه، ولانه مخلص ووطني لم يرتض الاستعمار بقاءه فعمل على احتواء البعثيين ومساعدتهم في التخلص منه، وحدث هذا، ولكنه بقى رمزاً خالداً يعيش في وجدان الملايين من الوطنيين.

انقلاب وليس ثورة

ذهب الدكتور علي المروح استاذ الفلسفة في الجامعة المستنصرية إلى القول: بان ما حدث في ١٤ تموز كان انقلاباً عسكرياً وليس ثورة، مجموعة من الضباط اطلقوا على انفسهم صفة الاحرار بحثوا عن حريتهم الشخصية، وهذا ما بدا في سلوكياتهم اللاحقة، قاموا بتحويل البلد من بلد دستوري إلى بلد تحكمه القوانين المؤقتة (الدستور المؤقت) ونشروا حالة الطوارئ بحجة تهديد الثورة، كما فعل البعثيون فيما بعد، هذا الامر أحال المجتمع إلى مجتمع عسكر تاري، شرع القتل الجماعي، منذ قتل العائلة المالكة وحتى مقابرنا الجماعية الحالية، إن الهتافات التي كانت تطلقها العامة لتمجيد عبد الكريم قاسم هي ذاتها التي اطلقت فيما بعد لتمجيد طاغية آخر هو صدام حسين بكل دمويته، هكذا عشنا منذ هذا الانقلاب وحتى اللحظة الراهنة ونحن لا نقول إلا باستنساخ الرموز وتعليقها على الجدران.

اما عبد الله الموسى (ماجستير فلسفة) فقال: حكم عبد الكريم قاسم البداية الحقيقية للحكم الفردي وعبادة الدكتاتور. إذ بفضل هؤلاء العسكر تحول المجتمع من مجتمع مؤسسات مدنية، إلى مجتمع يحكمه العسكر. هذه النقطة فاصلة حقيقية بين العهدين عهد البرلمان والحكومة الدستورية، وعهد الفردية والدستور المؤقت. وبرغم كل هذا فان للرجل حسناته، كأنسان فقد عرف ببساطته وحبه للفقراء وسعيه لرفع الظلم عنهم.

أما الثورة فارى أنها استنساخ ساذج لثورة (يوليو) المصرية، وكأننا لا نستطيع بناء تجربة خاصة.

في حين رأى عباس طالب سلمان (بكلوريوس علوم) أن الثورة كانت البادرة الاساسية لعسكرة المجتمع العراقي، هذا الامر الذي اثقلنا به حتى لحظة سقوط حكم البعث، إذ أن ثورة ١٤ تموز بقضائها على التجربة البرلمانية الملكية ودعوتها إلى ديمقراطية شعبية لا يعرف أحد كنهها إنما لم تفعل أكثر من نقل التجربة المصرية بكل سلبياتها إلى العراق. لهذا ارتبطت بعض الانجازات (الاصلاح الزراعي وقانون ٨٠ الخاص بالنفط) بشخصية عبد الكريم قاسم نفسه، وهو شخص لا يشك أحد بوطنيته ونزاهته إنه اول من اطلق مقولة (العراق للعراقيين).

أما الباحث جواد الساعدي فقال بتبني الرأي الذي يذهب إلى أن ثورة ١٤ تموز كانت هي الممهد للدكتاتورية العسكرية في العراق بالصراع الذي جرى فيها وحولها على (عرش تموز)، حيث تم الانتقال من الديمقراطية النسبية التي وفرها العهد الملكي إلى الاستبدادية المتتالية في الجمهوريات التي تلت الثورة كالعارفيين والبكر وصدام ولقد كنا وما نزال نحمل عبد الكريم قاسم وزر كل ذلك فالرجل اساء ما وسعته الاساءة في (طفولته السياسية) وفي (نزعة الاستبدادية) ولقد كان عبد الكريم قاسم عسكرياً لامعاً ولكنه لم يكن باي حال من الاحوال سياسياً بارزاً وكانت قراراته ارتجالية لا تحمل مغزى الادراك الاداري - القيادي.

ذكريات لا تنسى

كنت شاباً وقتها.. يقول السيد جاسم محمد زغير آل زيرج (من أهالي الناصرية) ويضيف جاءت أمي مهرولة وهي تصيح (الجبير مات وصار واحد مكانه) وتقصد أطيح بالملك والعهد الملكي وحل محله الزعيم عبد الكريم قاسم والنظام الجمهوري.. وحتى هذه اللحظة أرى أن الزعيم وزملاءه من الضباط الأحرار قد صنعوا ثورة حقيقية غيرت عهد لعراق وقدمت الكثير من المنجزات لهذا الشعب الطيب.. وما زلنا على يقين من أن الزعيم هو إنسان وطني (نظيف) لم يسرق أموال الشعب ولم يبعثرها على طيش أو أحلام أو جنون، وجاء إلى الحكم ببدلة عسكرية وقتل ببدلة عسكرية.. شاهدناه لأول مرة في وزارة الدفاع وعرفنا أن آخر ساعة من عمره كانت في وزارة الدفاع.. لا يملك بيتاً ولا مالاً وحينما طلبت منه شقيقته أن يبني لها بيتاً اصطحبها معه إلى منطقة شعبية، بيوتها مصنوعة من الطين والصرائف وقال لها عندما يملك هؤلاء بيوتاً فسيكون لك بيت مثلهم! ومثل هذا الرجل وايامه في تلك الثورة العظيمة لم تتكرر، فقد قضى وإلى الأبد، على الإقطاع وحرر الطبقة العاملة من العبودية والاضطهاد وأوجد في العراق صناعة وطنية وبلط شوارع المدن والأحياء. وعندما شجعنا على الالتحاق بالمدارس (ونحن من العوائل الريفية الفقيرة، أنشأ لنا أقساماً داخلية قرب مدارسنا وجهزها بغرف

والطعام والماء مجاناً، ولا أنسى كم فرح العمال بقانون التقاعد والضمان الاجتماعي وكم فرحنا من القضاء على الظلم والاضطهاد في العهد الملكي.. فالملكية (لأهلها) وليست للعراقيين، واعتقد أن ثورة (١٤) تموز هي الأفضل والأصلح من كل الأنظمة التي سبقتها والتي أعقبتها بلا استثناء، وأكثر ما نتمناه أن نرى في الشوارع والأحياء والمدن ما يشير إلى تلك الثورة وإلى رموزها الأبطال وعلى رأسهم الرجل الذي قال لأصحابه وأعدائه وقتلته جملة واحدة فقط: (عفا الله عما سلف!!).

اغتيال ثورة!

يقول حمودي جواد كاظم : بائع جرائد.. أنا بائع جرائد وفي يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ كنت بائع جرائد أيضاً! وكانت أشهر الصحف التي أبيعها هي (البلاد - العهد الجديد - (الثورة) - الحوادث - الشعب.. الخ).. وعندما سمعنا بقيام الثورة خرجنا إلى الشوارع فرحين لأيام عديدة خاصة وقد صادف بعد أيام حلول ذكرى العيد فاستمرت الأفراح والأعياد بذلك اليوم الخالد الذي هز أوكار التخلف والظلام.

والحقيقة ان سبب فرحتنا أن النظام أصبح (جمهوريا)!! ولكن هذه الجمهورية لم تمنح فرصتها الحقيقية فاغتيلت وهي فتية وتآمر عليها الأجنبي والعربي وأبناء جلدتنا جميعاً! وبعدها صباحاً فخرجنا إلى شوارع المدن الرئيسة وكلما شاهدنا دبابة عراقية أو سيارة عسكرية نثرنا على رؤوس راكبيها الورد و (الجكليت الواهلية) وهذا أقل ما نعبر به إلى هؤلاء الذين انقذونا من عهد الملكية البغيض.. فقد كنا نسكن في صرائف بائسة وجاء (الزعيم) وأنشأ لنا مدن الثورة والشعلة، في حين وزرع الأراضي على المواطنين في حي العامل بسعر التراب (المتر بدرهم!!).

أما ما نذكره يوم سقوط الثورة يضيف (الساعدي) فقد كنا نقاتل في الشوارع ونقذف أعداء الثورة من البعثيين والحرس القومي (بطالة مليئة بالبنزين) ولم نجعلهم يهدأ لهم بال، أو يحلمون بالنصر ولكنهم خدعونا ووضعوا صور الزعيم على الدبابات وتمكنوا بهذه الخدعة المزيفة من القضاء على الثورة فتصور كيف تنجح ثورة جاءت بالكذب والخداع!!

في حين كان الزعيم في الأحياء الفقيرة وأبلغوه بقيام انقلاب فذهب إلى وزارة الدفاع ليقاتل وخاطب زملاءه الذين أخبروه بالانقلاب (إن لم نمت اليوم فسنموت غداً!!) وأريد أن اسجل مشهداً لا أنساه أبداً وهو أن (مانوم) وهو رجل مختل عقلياً كان يقف أمام الزعيم في كل خطاباته الارتجالية في شوارع بغداد ويهتف ويصفق فتبكي الناس من فرحتها ومن إعجابها بهذا الزعيم الذي يحبه حتى بطيء الفهم!!

قتلوا الزعيم نفسه الذي وهب حياته للناس البسطاء والفقراء وجاءت بعده عهود مظلمة وظالمة سحقت الأخضر واليابس وأعادتنا إلى أيامنا السود.

أما الآن يضيف حمودي جواد فارس فأرى أن يقام نصب تذكاري لثوار تموز تخليداً لأيامهم وأدوارهم التاريخية في صنع العراق الجديد بعد عبودية واستعمار دام لعقود عديدة..

فرحة عارمة

ويستذكر رحيم علي كاظم الساعدي بائع على الرصيف قيام الثورة فيقول: أعلنت الثورة حقوقهم وجعل الشعب يتنفس عبق الحرية والحياة الكريمة.. لقد أخبرني جاري وهو رجل معوق، وكان فرحاً للغاية، قال: (الزعيم انطاني بيت).. وهذا هو كل ما كان يحلم به في زمن الملكية!!

كان العراق خرابة!

حميد مجيد: معلم متقاعد قال: تعتبر ثورة ١٤ تموز بحق أم الثورات فقد صنعها قادة أحرار وطنيون وخاصة الزعيم عبد الكريم قاسم.. وأثناء عمرها القصير صنعت العديد من المنجزات التي ما زالت آثارها إلى الآن.. والحق أن ما صنعته ثورة ١٤ تموز في عمرها القليل هو أكثر بكثير من كل ما تبجح بصنعه صدام طوال (٣٥) عاماً!

لقد استحدثت الثورة الأحياء والمدن والكهرباء والماء وتبليط الشوارع وقوانين عديدة للطبقة العاملة والفلاحية.. وهي التي أوجدت الطاقة الذرية لخدمة الناس وتحديث الصناعة واذكر أن الزعيم أرسل بعثات من الطلبة إلى الاتحاد السوفيتي السابق للدراسة على نفقة الدولة في حين حولها صدام إلى مصانع شريرة يريد أن يناطح بها الدول العظمى فعادت وبالاً علينا جميعاً!

للتاريخ فقط..

يقول الزميل زهير رضوان أنه التقى أحد الجنود العراقيين الذي اشتركوا بدفن جثة الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم وروى له تفاصيل هذه العملية الإجرامية.. قال: دفن الزعيم الراحل قرب سياج الكلية العسكرية في الرستمية.. ثم جاء ضابط وطلب خمسة جنود لغرض نبش القبر، وبالفعل تم نبش القبر وإخراج الجثة من جديد.. وبعدها طلب إحضار شيء ثقيل فجيء بسرفة دبابة وربطت بالجثة بواسطة (سيم) ونقلت إلى جسر ديالى حيث قذف بها في نهر ديالى!!

محمد مخلف الصالح

جبار جري

حميد مجيد

حمودي جواد كاظم

رحيم علي كاظم

جاسم محمد زغير